

المؤرخ وبل دهورانت (١٨٨٥-١٩٨١) وآراؤه بشأن مصدر
الفران الكريم في كتاب: «فصحة الحضارة» (عرض ونقد)

د. عبد الرحيم خير الله عمر الشرف *

ملخص البحث :

يعد (ويل ديورانت) من أبرز المؤرخين المعاصرين ، و حين تناول الحديث عن عصر نبوة محمد صلى الله عليه و سلم زماناً و مكاناً و أحداثاً ، ورد في كتاباته كثير من الموضوعية و الحياد ، لكن اعترافها بعض الأغلوطات التاريخية التي استقاها من مصادر غير صحيحة ، أو من مجرد أوهام ، ثم بنى على تلك الأغلوطات نتائج جانبت الحق .

لذا جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على المقدمات التي أوقعته في نتائج مغلوطة متعلقة بمصدر القرآن الكريم عرضاً و نقداً . و تتكون الدراسة من مبحثين : نظري وتطبيقي ، في المبحث النظري ، تم التعريف بـ(ويل ديورانت) و بكتابه (قصة الحضارة) ، ثم التطبيقي الذي اشتمل على أبرز آرائه حول مصدر القرآن الكريم و نقدها ، ثم الخاتمة : و فيها نتائج الدراسة و توصياتها .

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد .

يغترُّ عدد من الناس بكتابات المؤرخين الغربيين ويظنون فيها الدقة والموضوعية العلمية؛ وفي هذه الدراسة نقد لما أورده أحد المؤرخين الغربيين، هو المؤرخ الأمريكي (ويل ديورانت / Will Durant) في كتابه (قصة الحضارة).

أهمية الدراسة: تكمن أهمية الدراسة في نقاط أبرزها:

1. انتشار كتاب (قصة الحضارة) في معظم المكتبات العامة والجامعية، وكثير من المكتبات الخاصة للمهتمين بالدراسات التاريخية والاجتماعية.

2. أن (ديورانت) من المؤرخين الذين لا يعدون من زمرة المستشرقين؛ لذا لا ينظر كثير من الناس إلى كتاباته بعين الناقد البصير.

3. ورود أغلوطات حول مصدر القرآن الكريم في كتاب قصة الحضارة.

أهداف الدراسة: تهدف هذه الدراسة إلى:

1. التعريف بلمحة تاريخية عن حياة (ديورانت).

2. تحليل أبرز الشبهات حول القرآن الكريم الواردة في كتاب قصة الحضارة، ونقدها.

3. التأكد من صحة دعوى أنه: كتاب جليل من الكتب القليلة التي أنصفت الحضارة العربية الإسلامية؛ لأن كاتبه اتصف بالروح الموضوعية وبالمنهج العلمي، وبالالتزام الخلقي^١.

الدراسات السابقة: لا توجد دراسات سابقة تناولت عرض ونقد الآراء السلبية

(١) انظر: المقدمة، صفحة (ج)، تقديم أ.د. محيي الدين صابر للكتاب.

حول مصدر القرآن الكريم الواردة في كتاب: (قصة الحضارة).

وأقرب ما وجد الباحث من هذه الدراسة: ما كتبه الدكتور محمد محمد حسين في كتابه (حصوننا مهددة من داخلها)، ذاكراً أمثلة على أغلوطات وردت في الكتاب تتعلق بالسيرة النبوية، وعصمة سيدنا محمد ﷺ، عرضاً سريعاً دون نقد؛^(١) لذا فإن هذه الدراسة تختلف عما كتب د. محمد محمد حسين في تخصيصها للشبهات المثارة حول مصدر القرآن الكريم عرضاً ونقداً.

محددات الدراسة: ستناول الدراسة عرضاً ونقداً لأبرز الشبهات الواردة حول مصدر القرآن الكريم في كتاب: قصة الحضارة للمؤرخ الأمريكي (ويل ديورانت)؛ لذا فلن تتناول الشبهات المثارة في الكتاب بخصوص ما يحتويه القرآن الكريم من عقائد وأخبار وتشريعات.

منهج البحث في هذه الدراسة: سيستخدم الباحث المنهج التاريخي: لعرض ما يهم الدراسة من سيرة حياة (ديورانت)، ثم المنهج الاستقرائي: لتتبع شبهاته حول مصدر القرآن الكريم، ثم المنهج النقدي: لتحليل الأغلوطات الواردة، ثم بيان خطئها بالأدلة العلمية الصحيحة.

تقع الدراسة في مبحثين وخاتمة:

المبحث الأول في بيان مقدمات لا بد منها، كالتعريف بأبرز ملامح شخصية (ديورانت)،^٢ وتعريفاً بكتابه قصة الحضارة.

ثم المبحث الثاني. يشكل صلب الدراسة. ويتناول عرضاً ونقداً لأبرز الشبهات الواردة حول مصدر القرآن الكريم في كتاب قصة الحضارة،

ثم الخاتمة التي ستجمل أبرز نتائج البحث وتوصياته.

(١) انظر: حصوننا مهددة من داخلها، ص ١٢١-١٣٥.

(٢) حصل الباحث على السيرة الذاتية للمؤرخ (ديورانت) من مكتبة (American National Bio raphy Online) بتاريخ ١٣ / ١١ / ٢٠٠٩م عن طريق البريد الإلكتروني.

المبحث الأول

تعريف بالمؤرخ ويل ديورانت وكتابه قصة الحضارة

المطلب الأول: ويل ديورانت وزوجه:

أولاً: ويل ديورانت:

ولد (وليام جيمس ديورانت) بتاريخ (١٠ / ٥ / ١٨٨٥م) في منطقة نورث آدامز بالولايات المتحدة الأمريكية، وفي شبابه تبنى المذهب التشكيكي^(١) الذي وضع أسسه الفيلسوف (اسبينوزا)^(٢) ثم أكمل دراسته العليا بجامعة (كولومبيا) ونال شهادة الدكتوراه منها سنة ١٩١٧م وعمل فيها،^(٣) لكنه فصل منها لمعارضته للحرب العالمية الأولى عام (١٩٢١م).

تفرغ بعد فصله ليلقي سلسلة محاضرات حول تاريخ البشرية، وأعاد كتابتها في الصحف، ثم فكر بجمعها ووضعها في كتاب واحد اختار له اسم: (قصة الحضارة).

توفي (ديورانت) في (٧ / ٩ / ١٩٨١م) بـ(لوس أنجلوس)، بعد وفاة زوجته (إيريل) بعشرة أيام.

ثانياً: زوجه إيريل ديورانت:

ولدت الطفلة (شايا) من والدين يهوديين مهاجرين من أوكرانيا في (١٠ / ٥ /

(١) (مذهب فلسفي يتبنى طرح كل ما يوهم الشك، فلا يتبقى إلا العلم اليقيني. انظر: المرجع السابق، ص ٤٤٤.

(٢) (أكبر الفلاسفة الذين تأثر بهم (ديورانت)، تولى والده التاجر اليهودي الهولندي تنشئته ليصبح فيلسوفاً دينياً، لكنه تحرر من أفكار اليهود، مما أدى إلى طرده من الكنيس، فتلقاه نصارى، فاحترار بين ما تعلمه عند اليهود والنصارى، فانتقل إلى مذهب الشك الديكارتي، والحث على التسامح مع أصحاب الأفكار الأخرى، مات سنة (١٦٧٧م) منعزلاً في مدينة لاهاي. انظر: موسوعة أعلام الفلسفة، إيلي ألفا ٥٤٩/١. وقد وصفه (ديورانت) بأنه أعظم الفلاسفة في العصر الحديث. انظر كتابه: قصة الفلسفة، ص ١٨٧.

(٣) (انظر: مقدمة فهارس قصة الحضارة، محمد عبدالرحيم ٢٢/١.

١٨٩٨م)، وتزوجت من معلمها (ديورانت) سنة (١٩١٢م) وعمرها خمسة عشر عاماً، وغيّرت اسمها إلى: (إيريل ديورانت). وسافرت معه حول العالم وساعدته في جمع المادة العلمية لكتابه: (قصة الحضارة) من عام (١٩٢٨-١٩٤٣م)، وتقديراً لها على جهودها قام بإضافة اسمها. بصفة مؤلف مشارك. في الفصول الخمسة الأخيرة من كتابه: (قصة الحضارة).^(١)

المطلب الثاني: موقفه من الدين:

عرّف (ديورانت) الدين بأنه: « عبادة القوى الكائنة فوق الطبيعة »،^(٢) وقال بأن المؤرخ ينبغي أن يكون محايداً في نظرته إلى الأديان؛ لأن « ليس من شأن المؤرخ أن يسأل هل هذا الدين حق أو باطل، وأنّى له العلم المحيط بكل شيء ؟ ».^(٣) لكنه لم يلتزم بقوله؛ ففي كلام له تحت عنوان: « مهمة الدين الخلقية » زعم بأن « الدين دعامة الأخلاق بوسيلتين أساسيتين هما الأساطير والمحرّمات؛ فالأساطير هي التي تخلق العقيدة فيما وراء الطبيعة، ثم يكون من شأن هذه العقيدة أن تضمن بقاء أنواع من السلوك يريد المجتمع. أو يريد الكهنة - بقاءها؛ فما يرجوه الفرد في السماء من ثواب، وما يخشاه لديها من عقاب: يضطره اضطراراً أن يذعن للقيود ».^(٤)

ثم قال: ” يبدأ الدين بمَدَد من السحر يقدمه للناس في حيرتهم وارتباكهم؛ ثم يصعد إلى قمة مجده بمَدَد من وحدة الأخلاق والعقيدة يقدمها للناس فتجيء هذه الوحدة معيّنة أكبر العون للسياسة والفن؛ ثم ينتهي بقتال يفنى فيه فناء المنتحر دفاعاً عن قضية الماضي الخاسرة ”.^(٥)

(١) هذه المعلومات مستقاة من السيرة الذاتية لـ (ديورانت) المرسلة للباحث من مكتبة (American National Biography Online).

(٢) قصة الحضارة ٩٨/١.

(٣) قصة الحضارة ٥٣/١٣.

(٤) قصة الحضارة ١١٧/١.

(٥) قصة الحضارة ١٢١/١.

وذكر مثلاً: كان العرب يتخذون الدين وسيلة من أجل بسط الحكم،^(١) فإنك حين تريد أن تحكم الناس « لا تستطيع أن تؤثر فيهم بالعقل. أو أن تقنعهم إقناعاً بضرورة الوقار والورع والإيمان. كلا، بل لا بد لهم من الخوف الديني أيضاً، ولا يمكن إثارة هذا الخوف في نفوسهم بغير الأساطير والأعاجيب ». ^(٢)

وقد علل (ديورانت) نزعة التدين الفطرية عند الناس، وأرجعها إلى عوامل خمسة: ^(٣)

١. الخوف: كالخوف من الموت؛ حيث يأمل المتدين معونة الآلهة لإبعاد الموت.

٢. الدهشة: دهشة الإنسان من مظاهر الطبيعة التي عجز عقله البدائي عن تفسيرها.

٣. الأحلام: طلب المعونة من الآلهة لتحقيق الأمناني دون تعب.

٤. النفس: أي: الشاعرية والحس العاطفي يؤمن بوجود ملائكة وجنيات.

٥. الروحانية: أي نظرة الإنسان إلى الكون معتقداً بوجود قوى خفية تسيّره، ككلب رأى ريحاً حركت ورقة، فظن أن أرواحاً غيبية تحركها.

ومن الأمثلة التي ضربها على ذلك في الإسلام: الطواف حول الكعبة، فقال: « وقد يبدو لغير المسلمين أن الطواف حول الكعبة من الأعمال التي لا تنطبق على العقل.. وفي الأديان كلها ما يبدو لغير أصحابها أنه مما يعزّ على الأفهام. والأديان جميعها. مهما يكن من نبل أصولها. لا تلبث أن تحشر فيها طائفة من الخرافات لا صلة بينها وبين مبادئها الأولى، وإنما تنشأ بطبيعتها من العقول التي خيم عليها وأنهكها تعب الجسم ورهبة الروح في كفاحها للخلود ». ^(٤)

ورغم أن (ديورانت) ينادي - نظرياً - بضرورة تحلي المؤرخين بالحيادية والنظر

(١) انظر: قصة الحضارة ١٣/٨.

(٢) قصة الحضارة ٩٧/١.

(٣) انظر: قصة الحضارة ٩٩/١-١٠٢.

(٤) قصة الحضارة ١٣/١٢٨.

بموضوعية إلى سلوك الأفراد الناتج عن فطرة التدين بعامة، وأنه لا ينبغي له أن يزدري أيًّا منها ولا ينتقص من متبعيها، إلا أنه يخالف ذلك عملياً؛ فتجده. مثلاً. يمدح اليهودية ويذم النصرانية.

قال مادحاً اليهود: « كانوا أنقى أجناس الشرق الأدنى غير النقية.. أما نساؤهم. وهن من أجمل نساء الأمم القديمة. فكن يصبغن خدودهن ويكتحلن ويتحلين بكل ما يجدن من الحلي، ويلبسن أحسن الأزياء وأحدثها في بابل ونيوى ودمشق وصور.. وكانت اللغة العبرية أعظم اللغات الرنانة على ظهر الأرض »،^(١) ولم ير العالم شعباً آخر أولع بالفضيلة كولع اليهود ».^(٢)

حتى إنه سوّغ سوء خلقهم فقال: « وكانت عزلتهم ناشئة من تقواهم، كما كان ميلهم إلى الخصام والتذمر ناشئاً من حساسيتهم القوية التي أمكنتهم من إنتاج أعظم آداب الشرق الأدنى؛ وكان كبرياؤهم العنصري أقوى سند لشجاعتهم خلال قرون التعذيب الطوال ».^(٣)

وفي كل مناسبة تجده يدفع شبهة نسبة الشر عن اليهود، انظر مثلاً: « وظن [رسول الله ﷺ] أن يهود خيبر قد دسوا له السم في اللحم ».^(٤)

وزعم (ديورانت) بأن تعاليم الإسلام جامدة لا تتناسب مع العصر (3/141)، وبأن الإسلام يمنع المرأة من دخول المساجد (1/63)، ووصف الفاتحين المسلمين

(١) قصة الحضارة ٢/٣٢٩.

(٢) قصة الحضارة ٢/٣٤٥.

(٣) قصة الحضارة ٢/٣٧٧. وانظر تلميحه لدور اليهود في بناء الأهرامات بمصر ٢/٣٢٥.

(٤) قصة الحضارة ١٣/٤٦. يقصد ما قالت أم المؤمنين السيدة عائشة. رضي الله عنها: « كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: يَا عَائِشَةُ، مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ فَهَذَا أَوَانٌ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي مِنْ ذَلِكَ السَّمِّ ». والحديث رواه البخاري في صحيحه معلقاً بصيغة الجزم في كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ ووفاته (٤٤٢٨). ووصله ابن حجر في التلخيص ٤/١٦٢ (٤٤٢٨). وللتفصيل حول قصة أكله ﷺ من الشاة المسمومة في خيبر، انظر: سيرة ابن هشام 4/310. وكان التسميم مؤامرة عامة لليهود، فقد ذكر القسطلاني في المواهب اللدنية 1/534 أن المرأة اليهودية حين: ” شاورت اليهود في سُموم، اجتمعوا لها على هذا السم بعينه ”.

بأنهم همج (3/125) ولصوص (3/127)، بل زعم بأنك لن تجد قصصاً تاريخية ملطخة بالدماء أبشع من قصة فتح المسلمين للهند (3/125)، ويرى أنه لشدة عدوانية المسلمين لم يطل حب اليهود من أهل المدينة المنورة لهذا الدين ذي النزعة الحربية (13/36).

وبهذا تظهر لـ (ديورانت) ميول نحو اليهودية، لعل سببها تأثير زوجه (إيريل) اليهودية، وهذا الميل جعله يخالف المنهج العلمي الموضوعي في تحليل الأحداث التاريخية، المتجرد عن الهوى والتعصب والأفكار المسبقة.

المطلب الثالث: التعريف بكتاب قصة الحضارة:

يتميز كتاب قصة الحضارة بأسلوبه السهل، الذي يجمع بين الجدية العلمية والإيقاع الشعبي، الذي جعل له قبولاً لدى العامة، فكيف نشأت فكرة الكتاب، وما أبرز فصوله؟

أولاً: فكرة تأليف الكتاب:

ذكر (ديورانت) أنه كان يريد تأليف كتاب يُعد: تاريخاً للمدنية يروي فيه "أكثر ما يمكن من النبا، في أقل ما يمكن من الصفحات" ^(١). وبدأت فكرة الكتاب المبدئية سنة (1904م)، ولكنه بدأ تنفيذه بجدية سنة (1929م). ومن أجل جَمْع مسودة الكتاب قام برحلة إلى أبرز دول العالم من سنة (1928-1943م)، ورافقته زوجته (إيريل) في تلك الرحلة. ^(٢)

ثانياً: وصف الصورة النهائية للكتاب:

تحدث (ديورانت) في مقدمة كتابه (صفحة: ل) عن الخطة المرسومة للكتاب، قال: وخطة هذه السلسلة هي أن نروي تاريخ المدنية في خمسة أجزاء مستقلة:

(١) مقدمة قصة الحضارة، ص ١٣.

(٢) لمعرفة أبرز الدول التي زارها، والفصول التي كتبها بعد زيارتها.. انظر: فهارس كتاب قصة الحضارة، محمد عبد الرحيم، ١/ ٢٢ و ٢٤، والفهارس في مجلدين ملحقين بطبعة دار الجيل للكتاب.

1. (تراثنا الشرقي) : تاريخ مصر والشرق الأدنى حتى وفاة الإسكندر، والهند والصين واليابان إلى يومنا الحاضر، ويسبق ذلك مقدمة عن طبيعة العناصر التي تتألف منها المدنية.

2. (تراثنا الكلاسيكي) : تاريخ اليونان وروما والشرق الأدنى.

3. (تراثنا الوسيط) : تاريخ أوروبا الكاثوليكية والإقطاعية، والمدنية البيزنطية، والثقافة الإسلامية، والثقافة اليهودية في آسيا وإفريقية وأسبانيا، والنهضة الإيطالية.

4. (تراثنا الأوروبي) : تاريخ الدول الأوروبية من الإصلاح البروتستانتي إلى الثورة الفرنسية.

5. (تراثنا الحديث) : تاريخ الاختراعات والسياسة والعلم والفلسفة والدين والأخلاق والأدب والفن في أوروبا منذ تولي نابليون الحكم إلى عصرنا الحاضر.

ثالثاً: ترجمة الكتاب إلى العربية:

تجد في الصفحة الأولى لطبعة دار الجيل . وقبل مقدمة كتاب: ” قصة الحضارة ” العبارة التالية: ” يسر دار الجيل أن تقدم قصة الحضارة، في اثنين وأربعين جزءاً، ضمن واحد وعشرين مجلداً، وذلك بالتعاقد مع المنظمة العربية للثقافة والعلوم (التابعة لجامعة الدول العربية) ”.

أما عن الباعث لترجمة الكتاب إلى العربية، فيرى د. محمد محمد حسين . في الفصل الثاني الذي يحمل عنوان (في الكتب المترجمة) من كتابه: (حصولنا مهددة من داخلها) . أن سماسرة الاحتلال الغربي وعملاءهم كانوا يضغطون على اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية عن طريق السفارة الأمريكية في القاهرة، ومنظمة (اليونسكو) . التي تسيطر عليها الصهيونية العالمية الهدامة . من أجل ترجمة كتب أجنبية إلى العربية تخدم أهدافهم. لذا أمرت: ” اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية وعلى رأسها طه حسين .. لتختار لها أشد الكتب فتكاً بالدين والأخلاق .. إن اختيار هذا الكتاب جريمة

دبرتها الصهيونية الهدامة المتخفية في زوايا اليونسكو”^(١).

لكن وجهة نظر اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية مختلفة، عبّر عنها أ.د. محيي الدين صابر المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: ”كانت الخطة التي قررتها إدارة الثقافة، بالأمانة العامة للجامعة العربية منذ وقت مبكر، حين أنشئت لترجم. إلى اللغة العربية. الأمهات في كل مجال من مجالات الفكر والفن، وكانت هناك هيئة من كبار المثقفين الذين تستشيرهم الإدارة، تقوم على اختيار تلك الأمهات؛ وقد كان كتاب قصة الحضارة لمؤلفه (ويل ديورانت) من الكتب التي اختيرت لترجمتها. وهذا الكتاب الجليل يعتبر من الكتب القليلة التي أنصفت الحضارة العربية الإسلامية. فلقد اتسم كاتبه (ويل ديورانت) بالروح الموضوعية، وبالمنهج العلمي، وبالالتزام الخلقى؛ وهو من الكتاب الغربيين القليلين الذين اعترفوا بفضل الحضارات الشرقية، وتأثيرها الكبير في الحضارة اليونانية واللاتينية..”^(٢).

وسوّغ د. محمد بدران. المترجم الرئيس للكتاب. إبقاء المترجمين لبعض الأغلوطات بقوله: ”أثرنا أن نثبت هذه الفصول التي يتحدث فيها المؤلف عن النبي ﷺ وعن القرآن والدين الإسلامي كما أوردها؛ حرصاً منا على الأمانة في الترجمة من جهة، ولكي يطلع قراء العربية على بعض آراء الكتاب غير المسلمين من جهة أخرى، سواء كانت هذه الآراء مما يتفق مع ما أجمع عليه أولئك القراء أم لا يتفق معه”^(٣).

ويوافق الباحث على رأي د. محمد بدران بضرورة معرفة المختصين من العرب المسلمين لآراء المفكرين والكتاب من أتباع الديانات الأخرى؛ بهدف رصد الأغلوطات الواردة فيها، ونقدها. لكن ينبغي عدم التوقف عند ذلك، بل ينبغي ترجمة الردود إلى اللغة الأم للكاتب، ونشرها.

أما التوسع والتعميم في تبني نظرية المؤامرة، وخشية د. محمد محمد حسين من

(١) حصوننا مهددة من داخلها، د. محمد محمد حسين ص ١١٩-١٣١.

(٢) الصفحة الأولى من مقدمة الكتاب، طبعة دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨م.

(٣) مقدمة المترجمين لفصل (محمد r في مكة)، قصة الحضارة 13/21.

تأثير الكتاب سلباً على عقائد الناس الذين يقرؤونه فلا يوافقوه عليه الباحث؛ حيث يرى أن الوقاية من تلك المخاوف وعلاج ما قد يسببه الاطلاع على الكتاب من تشويش لدى العامة فسيكون بمزيد من التعليق والتعقيب في الترجمة، بل لعل معرفة الناس لوجهات النظر تلك ومن ثم معرفة الرد العلمي عليها، خير من أن يكون الإنسان جاهلاً بها، ثم يُفاجأ بها حال اطلاعه على تلك الكتب بلغتها الأصلية، أو حين يحاور أحد علماء ومفكري الغرب الذين يتبنون أفكارها، ولعل التطعيم الفكري عند معرفة الشبهات والرد عليها سيحصنه من الانزلاق خلف آرائهم المغلوطة.

بل يرى د. شوقي أبو خليل أنه ليس من الحكمة أن يُحرّم القارئ العربي من الثقافة الواردة في هذا السّفر النفيس، هذا الكتاب الذي يُعد من الكتب العالمية المتميزة التي ألفت في هذا القرن، ويُغني عن مئات الكتب التي تُعنى بدراسة التجارب التاريخية للأمم السالفة؛ للاستفادة من تجاربهم، ومعرفة سبل مهاوي الهلاك التي انتهجتها دولهم؛ لتفاديها.^(١)

إنك تجد (ديورانت) نفسه شعر بأنه سيقع في أغلوطات عند حكمه على ديانات الشرق؛ فمما اعتذر لنفسه في صفحة (ل) من مقدمة الكتاب: ”كيف يُتاح لعقل غربي أن يفهم الشرق؟ إن ثمانية أعوام قضيتها في الدراسة والسفر لم يكن من شأنها سوى أن توضح لي هذه الحقيقة أيضاً - وهي أن العمر بأسره يخصص للبحث العلمي لن يكفي طالباً غريباً ليُدْمَج نفسه في روح الشرق .. فإذا أقبلَ الجمهور على الكتاب إقبالاً يدعو إلى طبعة ثانية منه فسننتهز هذه الفرصة لندخل كل ما عسانا نتلقاه من تصحيحات يقترحها النقاد والأخصائيون والقراء.”

وبناء على هذا، فقد ألقى (ديورانت) الكرة في ملعبنا لإدخال الاستدراكات والتصحيحات التي نراها مناسبة لتصويب ما ورد في كتابه من أغلوطات، ومنها: تلك الأغلوطات المتعلقة بمصدر القرآن الكريم، كما سيتبين في المبحث التالي.

(١) انظر: مقدمة فهارس الكتاب ١/ ١٤.

المبحث الثاني

رأي (ديورانت) في مصدر القرآن الكريم كما عبر عنه في كتاب قصة الحضارة

خصص (ديورانت) الجزء الثالث عشر من كتابه للحديث عن الإسلام، ومما قال معرفاً بالإسلام: ”الإسلام أبسط الأديان كلها وأوضحها، وأساسه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويتطلب الجزء الثاني من هذا الأساس: الإيمان بالقرآن وبكل ما جاء به“^(١).

وقد جعل باباً كاملاً من عشرين صفحة للحديث عن القرآن الكريم (الباب التاسع)، وفيه وصف القرآن الكريم بأنه الكتاب الذي له المنزلة الأولى عند المسلمين؛ لأنه: ”المحور الذي يدور عليه تعليمهم، والذروة التي ينتهي بها هذا التعليم.. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي“^(٢).

تلك رؤيته لمنزلة القرآن الكريم من حيث المحتوى، أما من حيث الأسلوب فيرى أنه « غني بالتشبيهات والاستعارات القوية الواضحة والعبارات الخلابة »^(٣).

ومن يقرأ تلك النصوص يتبين له بأن (ديورانت) ينظر إلى القرآن الكريم نظرة إعجاب لمضمونه وأسلوبه، لكن من المؤكد أنه لا يؤمن بربانية مصدره، فمن أين أتى القرآن الكريم برأيه؟

تعددت المصادر المحتملة المزعومة للقرآن الكريم بحسب رأي (ديورانت): إلى معلمين من أهل الكتاب، وأهواء شخصية، واضطرابات نفسية، بحسب المطالب التالية:

المطلب الأول: المعلمون من أهل الكتاب:

(١) قصة الحضارة ١٣/ ١١٦.

(٢) قصة الحضارة: ١٣/ ٦٩.

(٣) قصة الحضارة ١٣/ ٥٢.

أولاً: عرض رأي ديورانت:

يبدأ (ديورانت) التلميح بوجود معلمين مزعومين من أهل الكتاب بقوله: « وتقول إحدى الروايات إن عمه أبا طالب قد أخذه معه وهو في الثامنة عشرة من عمره في قافلة إلى بصرى ببلاد الشام، وليس ببعيد أن يكون قد عرف في هذه الرحلة قليلاً من القصص الشعبية اليهودية والمسيحية.. وكثيراً ما كان محمد ﷺ يزور المدينة التي مات فيها والده، ولعله قد التقى هناك ببعض اليهود وكانوا كثيرين فيها.. وكان في بلاد العرب كثير من المسيحيين، وكان منهم عدد قليل في مكة، وكان محمد ﷺ على صلة وثيقة بواحد منهم على الأقل: ورقة بن نوفل^(١) ابن عم خديجة الذي كان مطلعاً على كتب اليهود والمسيحيين المقدسة^(٢). »

زعم (ديورانت) أن بعض العبادات والتشريعات الإسلامية مقتبسة من:

1. التوراة: " والمحور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن - كما هي الحال في كتاب العهد القديم - هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الحياة الآخرة^(٣). "

2. التلمود: " وأجاز التلمود. كما أجاز العهد القديم والقرآن. تعدد الزوجات^(٤). "

وقال: " وأباح القرآن الطلاق للرجل كما أباحه التلمود^(٥). "

٣. الإنجيل: « أخذت الصلاة الربانية من الإنجيل بعد أن أدخل عليها بعض التعديل

٦. »

(١) هو ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي (ت ١٢ ق.هـ)، اعتزل الأوثان قبل الاسلام، وامتنع من أكل ذبائحها، وتنصّر، وقرأ كتب الأديان. لقيه رسول الله ﷺ بعد بدء الوحي، حين صار طاعناً في السن، ضريباً. انظر: البدء والتاريخ، المقدسي ٤/ ١٤٢. والأعلام، الزركلي ٨/ ٢١٥.

(٢) قصة الحضارة ١٣/ ٢٢-٢٥.

(٣) قصة الحضارة ١٣/ ٤٠٢.

(٤) قصة الحضارة ١٤/ ٣٣.

(٥) قصة الحضارة ١٣/ ٤٠٩.

(٦) قصة الحضارة ١٣/ ١١٨.

ثانياً: نقد رأيه:

هذا الرأي ضعيف ومتهافت من وجوه، منها:

١. لم يعاشر سيدنا محمد ﷺ إلا قومه، ولم يثبت أبداً أنه خرج من مكة قبل البعثة إلا مرتين فقط: مرة وهو صغير مع عمه أبي طالب ومرة تاجراً في مال خديجة. رضي الله عنها. برفقة غلامها ميسرة.^(١)

٢. لو كان اكتساب معلومات دينية واسعة وتغيير العقائد يحدثان بسهولة بسبب الرحلات التجارية، لكان غالب أهل مكة من اليهود والنصارى؛ فإنَّ الواقع التاريخي لم يثبت أن أحداً من تجار مكة قد غيّر دينه بسبب ما اطلع عليه من ديانات أثناء رحلاته التجارية.

٣. من غير الممكن أن يتردد سيدنا محمد ﷺ إلى بيت عالم خبر. معروف بعلمه. فيُعلِّمه دون أن يلاحظ ذلك أحد، فمكة المكرمة مدينة صغيرة المساحة، أحيائها. بل بيوتها. معروفة لكل واحد من أهلها، ولو كان فيها معلم لما لجؤوا إلى اتهام حداد نصراني رومي بتعليمه ﷺ.

٤. لم يُعلم في مكة يهودي واحد،^(٢) وعوام النصارى يُعدون بأصابع اليدين، أكثرهم من الموالي. إضافةً إلى أن يهود المدينة استقبلوا محمداً ﷺ بعد الهجرة بالعداوة صراحة.^(٣) فلا يمكن أن يساعدوه على كتابة القرآن الكريم، سواء كان مكياً أم مدنياً.

(١) انظر: البداية والنهاية، ابن كثير، ٢/ ٢٩٥. وانظر دراسة نقدية للروايات حول رحلاته ﷺ، في كتاب: «محمد رسول الله ﷺ» لمحمد الصادق عرجون ١/ ١٦٧-١٧٧ و ١/ ١٩٦-٢٠٢.

(٢) ذكر الدكتور (إسرائيل ولفنسون) أن القلب لا يطمئن إلى وجود يهود في مكة المكرمة. فلو كان كذلك، لكان لهم حي خاص ومعبد لهم الخاص... ولا يوجد في المصادر التاريخية ما يشير إلى ذلك. انظر له كتاب: اليهودية في بلاد العرب، ص ٩٥.

واعترف بذلك المستشرق الألماني اليهودي (ولهام رودلف)، فقال في كتابه: (صلة القرآن باليهودية والمسيحية): «من العسير أن نظن أنه كان بها (أي بمكة) يهود أو مسيحيون في عهد محمد ﷺ، وإلا احتفظت لنا السير بأنباء أكثر إسهاباً مما تناهى إلينا». انظر: الاستشراق بين الحقيقة والتضليل، د. إسماعيل علي، ص 127.

(٣) ذكر ابن هشام عن أم المؤمنين صفية. رضي الله عنها. أنها قالت: كنت أحب ولد أبي إليه وإلى عمي، فلما

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ ..﴾ (المائدة: ١٥).

٥. لم يُعرف عن اليهود في كل الجزيرة العربية نبوغ فكري ورقي حضاري، وفاقده الشيء لا يعطيه! ^(١) ولم يكن النصارى أحسن حالاً منهم، بل كانوا لا يملكون حتى التميز بشعر خاص بهم. على الأقل.. ^(٢)

٦. أكثر الاقتباس المزعوم هو في موضوعات القصص القرآني، التي سماها (ديورانت) القصص الشعبية لليهود والنصارى، لكن الغالبية العظمى من القصص القرآني كانت في السور المكية، أي قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة واتصاله. المزعوم. باليهود. وسبق بيان معاداة أحبار اليهود له ﷺ، وكتمان كتبهم عنه، فمتى أخذ عنهم!؟

٧. في القرآن الكريم قصص لأنبياء وأمم لا يعرفهم أهل الكتاب، كقصص صالح وهود وشعيب عليهم السلام.

٨. على فرض اقتباس رسول الله ﷺ من كتبهم، ألم يكن الأولى برسول الله ﷺ التعظيم على ما وافق ما في كتبهم من تفاصيل.. وأن لا يشير إلى تصديقه لصحيح ما ورد فيها؟

٩. أسباب النزول تنفي التعلم المسبق للنبي ﷺ، فأين كان معلومه المفترضون حين

قدم رسول الله ﷺ ونزل قباء غدا عليه أبي وعمي، وسمعت عمي يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت. انظر: السيرة النبوية ١٢٣/٢.

(١) لم يظهر بين يهود الجزيرة العربية من اشتهر بعلم أو فلسفة.. وهذا يدل على عدم ازدهار الحركة الثقافية عندهم، فهم آثروا البقاء منعزلين عن العالم، مكتفين بأبسط أنواع الحياة. انظر: المفصل، د. جواد علي ٨/٦. وتاريخ اليهودية في بلاد العرب، د. إسرائيل ولفنسون، ص ٤٢.

(٢) يقول د. جواد علي: «ولا يختلف الشعر النصراني عن شعر الشعراء الوثنيين بشيء.. من الصعب على الباحث أن يجد فرقاً كبيراً بين شعر الشعراء النصارى وشعر الشعراء الوثنيين؛ ولهذا ذهب بعض المستشرقين إلى أن من الصعب التحدث عن وجود شعر نصراني عربي. له ميزات امتاز بها عن الشعر الوثني. قبل الإسلام». انظر: المفصل ٤ / ١٣١١.

نزلت عليه آيات من القرآن الكريم في غزواته، وهو بين أصحابه يجيب عن أسئلتهم..
أم كانوا لا يُشاهدون إلا من قَبْل محمد ﷺ ؟

١٠. معجزة القرآن الكريم البلاغية التي عجز العرب عن مضاهاتها، يستحيل أن تكون من تعليم أعاجم، فليس من المنطق أن يكون القرآن الذي أعجز العرب بنظمه، ولقليل من آياته أسباب نزول خاصة.. قد ألقاه إليه حداد رومي على عجل وهو جالس عنده في السوق.

أما دور ورقة بن نوفل ﷺ في كتابة القرآن الكريم فلا تقوم به حجة؛ لأسباب منها:

1. قَصَرَ الوقت الذي شاهده فيه، فما في القرآن الكريم من عقائد وشرائع وقصص تحتاج إلى فترة زمنية طويلة. بل المنطق يقول إن أي إنسان عادي، لن يستطيع تأليف قوانين وشرائع مماثلة لتلك الموجودة في القرآن الكريم، إلا بعد مكث سنوات طويلة من التعلم.

2. لم يتهم أي مشرك محمداً ﷺ بأنه كان يقابل ورقة ﷺ لطلب العلم، مع أن ذلك الزعم أقوى من اتهامه بالتعلم من حداد رومي.

3. أين قريش من ورقة ﷺ؟ ولماذا لم يحضروه ليشهد على بشرية مصدر القرآن الكريم؟

4. ليس لورقة بن نوفل ﷺ أي حصيلة علمية تؤهله ليكون مصدر القرآن الكريم؟^(١)

5. كيف يستطيع ورقة ﷺ - وهو الأعمى كبير السن - أن يصعد إلى الجبل الذي فيه غار حراء، مع أن صعوده شاق على أشد الشباب قوة؟

(١) كان ورقة ﷺ يعبد الأصنام ستين سنة، ثم ذهب يبحث - ورفاقه - عن أفضل دين، وترددوا بين الشرك والنصرانية واليهودية، ثم استقر رأيه ورأي أكثرهم على الحنفية. وكان عُمر ورقة عند بعثة النبي ﷺ مائة سنة. انظر: البداية والنهاية لابن كثير: 2/340، والاستيعاب لابن عبد البر 2/616. فهو لا يملك ذلك العلم الواسع.

6. أين باقي تلاميذ ورقة عليه السلام ؟ هل من المعقول أن لا يكون له إلا تلميذ واحد يتيم فقير؟ ولماذا لم تبعث قريش بفتيانها إليه ليتعلموا منه ؟

7. هل رافق ورقة عليه السلام محمداً عليه السلام في كل حركاته وسكناته ؟ إن في أسباب النزول رداً مباشراً على زعمهم. فقد نزل أكثر القرآن الكريم بعد ورقة عليه السلام، وكان لعدد من آياته سبب نزول خاص بها، فهل خرج من قبره،^(١) ثم سار حتى وصل المدينة. دون أن يراه أحد. ليوحى إلى سيدنا محمد عليه السلام كيف يُقسَّم الغنائم بعد بدرٍ، ويرُد على حادثة الإفك مثلاً ؟!

8. لو كان لورقة عليه السلام ذلك التأثير على سيدنا محمد عليه السلام، لكان أول من يذهب إليه عليه السلام بُعيد نزول الوحي عليه وهو في غار حراء، قبل أن يعود إلى بيته.

وبهذا يتبين عدم صحة رأي (ديورانت) حول المعلمين المزعومين بصفتهم مصدراً محتملاً للقرآن الكريم، فما مدى قوة الرأي القائل بأن لأفكاره الشخصية وعواطفه أثراً فيه ؟ هذا ما سيتبين في المطلب التالي.

المطلب الثاني: حاجات النبي عليه السلام الجسدية والعاطفية:

أولاً: عرض رأي ديورانت:

زعم (ديورانت) أن النبي عليه السلام كان يؤلف القرآن الكريم ليحتج به في تلبية حاجاته العاطفية والجسدية، ومما قال: ” قل أن نجد إنساناً غيره حقق كل ما كان يحلم به، وقد وصل إلى ما كان يبتغيه عن طريق الدين ”.^(٢)

وضرب على ذلك مثلاً: ” لم يكن يستنكف أن يستعين بالوحي للأغراض البشرية

(١) توفي ورقة عليه السلام بعد بدء نزول الوحي بقليل، كما جاء في حديث بدء نزول الوحي الذي رواه عائشة رضي الله عنها كما ورد في كتاب بدء الوحي بصحيح البخاري باب: بدء الوحي (4): ” ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُؤْفَى ”. وأكد ابن حجر في فتح الباري 8/720 أن ورقة مات قبل أن يأمر الله ﷻ رسوله ﷺ بالدعوة جهراً.

(٢) قصة الحضارة ١٣/٤٧.

والشخصية، كما حدث حين نزل الوحي مؤيداً زواجه من زوجة زيد ﷺ متبناه^(١).
وليرسخ في الأذهان أن القرآن الكريم كان يصطبغ بأساليب الرسول ﷺ البليانية
التي تعلمها من معارفه الشخصية بصفته عمل تاجراً، قال: ” لغة القرآن غنية
بالتشبيهات التجارية ”^(٢).

وهذا يشبه كلام المستشرق (بوهل): ” إن الطبيعي - وقد كان محمد ﷺ تاجراً،
وزوجته خديجة تاجرة - أن يظهر في القرآن الاهتمام بالتجارة والتعبيرات التجارية
”^(٣).

ثانياً: نقد رأيه:

إن الزعم بأن القرآن الكريم صدر عن معارف سيدنا محمد ﷺ، منبثق من الرأي
السابق؛ لأن المعارف الشخصية ترجمة لما يتعلمه الإنسان من معلميه المختلفين.

والرد العام على هذا الزعم بإثارة تساؤل: هل عجزت أمهات ملايين العرب أن يلدن
مثله ﷺ؟ وهل كانت كل ظروف حياته ﷺ تؤهله ليكون مرتاح البال، هانئاً، جالساً
على أريكته، ممسكاً ورقة وقلماً، يكتب آيات من القرآن الكريم؟! إن ما يستطيعه آحاد
البشر، يستطيعه مجموع البشر بالضرورة. فلماذا لم يقوموا بذلك إذن؟ هذا بإجمال،
أما تفصيل الرد فكما يلي:

١. الفرق في الأسلوب بين القرآن الكريم والحديث الشريف، فمن المؤكد أن الشخص
الواحد مهما كان أديباً عبقرياً يستحيل أن تصدر عنه جُمْلٌ مختلفة في أسلوبها في الوقت
ذاته. فرسول الله ﷺ بشر، يغضب ويفرح ويحزن ويتألم، ويزداد علماً.. ولكنك تجد
فرقاً بين ما صدر عنه من سُنَّة قولية، وما أخبرنا أنه قرآن كريم. فلو كان مصدر
القرآن والحديث واحد، لكان من العسير جداً التفريق بين أسلوبيهما ونظمهما.

(١) قصة الحضارة ١٣/٤٣.

(٢) قصة الحضارة ١٣/٥٩.

(٣) نقل تلك العبارة عنه ونقدها د. إبراهيم عوض في كتابه: دائرة المعارف الإسلامية الاستشرافية،
ص ٢٣.

قال الباقلاني: ”إنّا إذا وازنا بين خطبه ورسائله وكلامه المنثور ﷺ، وبين نظم القرآن - تبيين من البون بينهما مثل ما بين كلام الله عز وجل وكلام الناس، فلا معنى لقول من ادعى أن كلام النبي ﷺ معجز، وإن كان دون القرآن في الإعجاز“ (١).

ولا يمكن القول: إن لمحمد ﷺ أسلوبين: أسلوب مزخرف هو القرآن الكريم، وآخر أقل منه هو الحديث الشريف؛ لأن أكثر القرآن الكريم نزل فجأة دون انتظار منه ﷺ، كما أن الرسول ﷺ هو أكثر الناس كرهاً للتنميق في الكلام، ولا ننسى أننا نتحدث عن العصر الذهبي للعربية، الذي سلمت في أذواق العرب وسليقتهم من أي مظهر من مظاهر اللحن.

هاتوا لنا إنساناً له موهبة أن يقول قولاً، وسجّلوا له ميزات أسلوبه. ثم أسألوه أن يغير الأسلوب إلى آخر، ثم سجّلوا له الأسلوب الآخر. ثم قولوا له: نريد أسلوباً ثالثاً.. فإنه لا يستطيع أن يبرأ من أسلوبه الأول أبداً؛ لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص في أداء المعنى. وما دامت له طريقة في أداء المعنى، فإن الأداء سيأخذ تشخيصاً لا يمكن أن يبرأ صاحبه نفسه منه.. (٢)

٢. لماذا لم يدع محمد ﷺ أن أحاديثه آيات، مع أنها كذلك موحى بها من عند الله ﷻ؟ (٣)

٣. من تتبع سيرة النبي ﷺ يتبين له مقدار خشيته من الله تعالى، وورعه. فيستحيل

(١) (إعجاز القرآن، الباقلاني، ص ٢٩١).

(٢) (انظر: شبهات وأباطيل خصوم الإسلام، محمد متولي الشعراوي، ص ٢٨. وللدكتور إبراهيم عوض كتاب مختص بحث هذه القضية عنوانه: «القرآن والحديث دراسة أسلوبية»، جاء في مقدمته، ص ٩: «المفروض. لو أن القرآن الكريم والأحاديث النبوية مصدرهما واحد. أن تكون الألفاظ المهمة المنتشرة في أحدهما موجودة بنفس الوفرة تقريباً في الآخر، ما دام العصر الذي ينتميان إليه واحد، والبيئة هي نفس البيئة، والظروف الاجتماعية والمهاد العقلي والنفسي هما هما، وما دامت الموضوعات التي يعالجها واحدة...».

(٣) (روى البخاري في الحج باب يفعل في العمرة ما يفعل في الحج (١٧٨٩)). «أن رجلاً أتى النبي ﷺ وهو بالجعرانة، وعليه جبة، وعليه أثر الخلق. أو قال صفرة. فقال: كيف تأمرني أن أصنع في عمري؟ فأنزل الله على النبي ﷺ.. قال: أين السائل عن العمرة؟ أخلع عنك الجبة، وأغسل أثر الخلق عنك...». والشاهد هنا: أن الوحي ينزل بالقرآن لفظاً، وبالحديث معنى. والرسول ﷺ لم يخلط بين القرآن والحديث.

أن يترك الخداع والكذب على الناس، ويكذب فيما ينسبه إلى الله ﷻ.

٤. ماذا يريد الإنسان من دعوى النبوة إن كان كاذباً؟ إنه لا يريد أكثر من الجاه والمال. وهذه قریش قد عرضت على رسول الله ﷺ أقصى ما يتمناه خيال أي عربي في ذلك الزمان، من مال وجاه ونساء.. ولكنه ترك ذلك كله، مع أنه كان يمكنه المكوث في عزٍّ وجاه وثروة لو ترك الدعوة إلى دين الإسلام.. أَيْصَدِّقُ عاقلٌ أَنَّ مَخَادِعاً يَرُدُّ ودائع قومٍ يريدون قتله، دون أن يستحل لنفسه منها شيئاً؟^(١)

٥. وجوه إعجاز القرآن الكريم المختلفة لم يأتِ بشرٌ بمثلها.

٦. خلو القرآن الكريم من تسجيل حوادث مهمة في حياة محمد ﷺ، وأسماء أحبائه وأقرب المقربين إليه (كوالديه، وأبنائه، وأصحابه المقربين السابقين إلى الإسلام، ونسائه..)، حتى لم يُذكرَ لفظ (محمد) ﷺ في القرآن الكريم، إلا أربع مرات فقط.

٧. وجود آيات العتاب في القرآن الكريم لسيدنا محمد ﷺ.^(٢)

٨. كانت تَمُرُّ على سيدنا محمد ﷺ الملمات الكثيرة، والقضايا العديدة التي تتطلب جواباً سريعاً كحقيقة حادثة الإفك، والثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك.. وتوفيت زوجه خديجة رضي الله عنها، وعمه أبو طالب، وابنه إبراهيم دون أن يذكر القرآن الكريم من ذلك شيئاً يواسيه.

وتزوج من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، دون أن يسطر ذلك في القرآن الكريم. بينما زواجه من أم المؤمنين زينب بنت جحش. رضي الله عنها. فقد تحدث القرآن الكريم عنه؛ لكونه ذا صلة بالتشريع.

٩. نزلت آيات من القرآن الكريم تخالف ما رجَّحه العقل البشري لسيدنا محمد ﷺ عند الموازنة للحكم بين أمرين، ومن ذلك قصة الفتى زيد بن أرقم ﷺ مع زعيم المنافقين. قال زيد بن أرقم ﷺ: « سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي يَقُولُ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ

(١) انظر: مصدر القرآن، د. إبراهيم عوض، ص ٨.

(٢) انظر كتاب: عتاب الرسول ﷺ في القرآن، د. صلاح الخالدي، دار القلم، دمشق، ط ١، ٢٠٠٤ م.

رَسُولُ اللَّهِ؛ حَتَّى يَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِهِ. وَلَكِنْ رَجَعْنَا مِنْ عِنْدِهِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي^(١).. فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَدَعَانِي فَحَدَّثْتُهُ، فَأَرْسَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا، فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبنِي مِثْلُهُ قَطُّ فَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ. فَقَالَ لِي عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَى أَنْ كَذَبَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَقَّتَكَ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ (المنافقون: ١). فَبَعَثَ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ فَقَرَأَ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدُ^(٢).

ويكفي للرد على هذا الزعم نفي سيدنا محمد ﷺ نسبة هذا الكلام العظيم البديع إلى عقله وفكره. فلو وجدت قاضياً يقاضي بالعدل، لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت على لسان صاحبها ﷺ، بأنه بريء من تأليف القرآن الكريم، وهذه الشهادة سيأخذ بها الصديق والعدو، ولا تحتاج بينةً تعضدها؛ لأنه لا مصلحة له ﷺ في أن ينسب بضاعته إلى غيره، ولو نسبها إلى نفسه لزاد بها رفعة وشأناً^(٣).

المطلب الثالث: اضطرابات نفسية (نوبات صرع):

أولاً: عرض رأي ديورانت:

وقف (ديورانت) حائراً بين تقليد المستشرقين في زعم إصابة النبي ﷺ بالصرع، أم نفيه.

فقد صرَّح بأن دعوى الصرع غير واقعية: ”قد يكون ارتجافه ناشئاً من نوبات صرع فقد كان يصحبه في بعض الأحيان صوت، وصَّفه بأنه يشبه صلصلة الجرس، وتلك حال كثيراً ما تحدث مع هذه النوبات، ولكننا لا نسمع أنه عضَّ من خلالها لسانه

(١) (المقصود: سعد بن عبادة ﷺ وهو ليس عمه حقيقة، بل سيد قومه الخزرج. انظر: فتح الباري، ابن حجر ٩/١٤).

(٢) (رواه البخاري في التفسير باب قوله جل جلاله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ (٤٥٢٠).

(٣) (انظر: النبأ العظيم، د. محمد عبد الله دراز، ص ١٧).

أو حدث ارتخاء في عضلاته كما يحدث عادة في نوبات الصرع، وليس في تاريخ محمد ﷺ ما يدل على انحطاط قوة العقل التي يؤدي إليها الصرع عادة، بل نراه على العكس يزداد ذهنه صفاء، ويزداد قدرة على التفكير، وثقة بالنفس، وقوة بالجسم والروح والزعامة، وقصارى القول: إنا لا نجد دليلاً قاطعاً على أن ما كان يحدث للنبي ﷺ كان من قبيل الصرع. ومهما يكن ذلك الدليل فإنه لا يقنع أي مسلم متمسك بدينه^(١). إلا أن (ديورانت) قبل ذلك قال: ”وكثيراً ما كان يحدث في أثناء هذه الرؤى أن يسقط على الأرض ويرتجف أو يُغشى عليه، ويتصبب العرق من جبينه، وحتى الجمل الذي كان يركبه كان يتأثر ويضطرب في مشيه. وقد قال محمد ﷺ: فيما بعد:.. إن مَشِيَّه كان من أثر هذه التجارب^(٢).“ وبعد ذلك زعم بأنه ”كان قلقاً عصبي المزاج، يُرى أحياناً كاسف البال، ثم ينقلب فجأة مرحاً كثير الحديث^(٣).“

وذكر - بدون تعقيب - أن قريشاً ”قالت: إِنَّ بَعْلَه خبالاً، وعرضت أن ترسله على نفقتها إلى طبيب يُرجى أن يشفيه من جنونه^(٤).“

ثانياً: نقد رأيه:

اختلفت تعبيرات المستشرقين وصياغاتهم في تسمية ما يزعمون أنها اضطرابات نفسية، كان يفوق منها رسول الله ﷺ ويتكلم بالقرآن الكريم بعدها: فعبر عنها بعضهم

(١) قصة الحضارة ١٣/٢٦.

(٢) قصة الحضارة ١٣/٢٥. ولعله يقصد الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه برقم (٣٢٧٩): «قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ شَبَبْتُ! قَالَ: شَيْبَتْنِي: هُوْدٌ، وَالْوَأَقَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَ”عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ“، وَ”إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ“». قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: 3/113، برقم (2627). وقد علل ذلك المباركفوري بقوله: ”وذلك لما في هذه السور من أهوال يوم القيامة“. انظر كتابه: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي 9/131.

(٣) قصة الحضارة ١٣/٤٥.

(٤) قصة الحضارة ١٣/٢٧.

بنوع من أنواع الصرع،^(١) وسماه آخرون الهوس،^(٢) أو الهلوسة،^(٣) أو الهذيان،^(٤) أو الاستبطان،^(٥) أو الهستيريا.^(٦)

لكن رفضَ الاتهام بالصرع عدد من المستشرقين؛^(٧) للأسباب التي ذكرها (ديورانت).

على كلِّ فإنَّ الزعم بأنَّ محمداً ﷺ كان يصاب بنوبة من الصرع ثم يخرج إلى أصحابه بالقرآن الكريم شبهة واهية، مخالفة للتاريخ والعقل، بحسب التفصيل التالي:

١. الحالة المذكورة للنبي ﷺ حين ينزل الوحي عليه بالقرآن الكريم، حالة من حالتين.^(٨) فكيف يتألف ما سمعه في كل حالة مع الأخرى، فيُصَدَّرُ قرآناً عظيماً معجزاً في نظمهِ ؟

٢. معروف أن المصروع لا يمكن أن يتذكر ما يحدث له أثناء صرعه، فكيف بحفظ القرآن الكريم؟ فالمصروع قد يدمر ما حوله، وعندما يفيق من صرعه ويهدأ ينكر ذلك كله؛ لأنه لا يتذكره.^(٩)

(١) مثل: (تور أندريا) و(هنري ماسيه) و(سنكلير تستدل). انظر: موقف الفكر العربي العلماني، د. أحمد الطعان، ص ٢٦٤.

(٢) مثل: (غوستاف لوبون). انظر: المرجع السابق.

(٣) مثل: (فرانتس بول) و(ماكس فيبر). انظر: المرجع ذاته.

(٤) مثل: (إدوارد مونتييه). انظر: المرجع ذاته.

(٥) مثل: (روم لاندو). انظر: المرجع ذاته.

(٦) مثل: (شبرنجر). انظر: المرجع ذاته.

(٧) مثل: (جيبون) و(وليام موير) و(لامانس) و(فون هامر). انظر: دائرة المعارف الاستشراقية، د. إبراهيم عوض، ص ٢٩.

(٨) الحالة الأولى: أن يأتي الوحي سيدنا محمداً ﷺ والوحي في حالته الملائكية، فينسلخ النبي ﷺ من حالته البشرية، ويرتقي إلى ما يقارب الملائكية، فيكون مجيئه كصلصلة الجرس؛ كي لا يختلط مع الوحي أي صوت من البيئة المحيطة، ويكون النبي ﷺ حاضراً الانتباه له كلياً (انظر ما رواه البخاري برقم ٤٨٠٠). والحالة الثانية: يأتيه بصورة رجل، كدحية الكلبي ؓ. (انظر ما رواه مسلم برقم ٢٣٣٣). وانظر: الإتيان للسيوطي ص ١٢٠، والمدخل لدراسة القرآن الكريم لأبي شهبه ص ٦٠.

(٩) انظر: المرجع في الأمراض العصبية وجراحاتها، د. منصور الشحادات وآخرون، ص: ٨٨-١١٠. وذكر من الأمور المعروفة في الصرع: أنه قبيل استيقاظه من نوبة الصرع: يستمر المريض بحالة تخطيط

فكيف إن كان ما تذكره كلاماً أعجز كل من حوله ؟

٣ . لم يأت أي مصروع بما جاء به سيدنا محمد ﷺ، بل ولم يتلفظ بحكمة، أو خطبة بليغة، أو بيت شعر بديع .. ألهمه به عقله أثناء صرعه .

٤ . لا يُعقل أن تسمح السيدة خديجة . رضي الله عنها . لزوجها ﷺ أن يعتكف في غار حراء وحيداً، شهراً كاملاً كل عام وهو يُصرع عادة، وهل يعرف الزوج أحد أكثر من زوجه ؟

٥ . من المعلوم : أن المشركين كانوا يضعون ودائعهم عند سيدنا محمد ﷺ، وبقيت عنده قبيل الهجرة النبوية، حين أبقى علياً رضي الله عنه ليردها إلى أصحابها؛ ولكنها استغرق رُدّها ثلاثة أيام^(١).

فهل كانوا يضعونها عند مصروع ؟ بل وضعوها عند عقل الناس، وأصدق الناس، وأكثرهم أمانة. ولسان الحال أبلغ . وأصدق . من لسان المقال . انظر التعبير البياني المعجز في قوله تعالى: ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير: ٢٢)، فمحمد ﷺ صاحبكم منذ ولادته، وأنتم الأعم بسيرته الخلقية والمرضية، فإن لم تشهدوا عليه جنوناً من قبل، فكيف تزعمونه اليوم بلا دليل ؟

ألم يصدّقوه ﷺ عندما وقف على الصفا وأنذرهم .. فقالوا له: « مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا »^(٢) لماذا لم يقولوا: لا نستمع إلى مجنون ؟ وقبلها أقروا بمشورته في وضع الحجر الأسود^(٣). إن تلك الحوادث تبين إعجابهم بعقله ﷺ، حيث « كان يُتَحَاكَمُ إلى رسول الله

ذهني، وعدم اعتدائه .. مع اضطراب الذاكرة وحركات لا إرادية كفرك اليدين والمضغ (غالباً بعض لسانه) مع اضطرابات وجدانية متتالية: حزن، فرح، اكتئاب، خوف، تيه .. وبعد استيقاظه: يشعر بالإرهاق، وتعب في العضلات .. وكلها لم يشاهد أحد أياً منها على رسول الله ﷺ.

(١) (انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١١١ / ٢ . والطبقات الكبرى، ابن سعد ٢٢ / ٣ .

(٢) (أخرجه البخاري في التفسير، باب سورة: « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » (٤٩٧١)، ومسلم في الإيمان، باب قول الله تعالى: « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » (٢٠٨) .

(٣) (حين قالوا: « أَتَاكُمُ الْأَمِينُ » . رواه أحمد في مسند المكين (١٤٩٥٧) ٣ / ٢٥٠ ورواه الحاكم في المستدرک

١ / ٥٨٨ وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي . وانظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد ١ / ١٤٥

ومجمع الزوائد، الهيثمي ٣ / ٢٨٩ وقال: رجاله رجال الصحيح . وكان عمره ﷺ حينها (٣٥) سنة، أي

ﷺ في الجاهلية، قبل الإسلام»^(١).

٦. من الطبيعي أن يفترى بعض الناس على الدعاة والمصلحين، ويلفقون لهم تهماً ليست فيهم؛ حتى لو كانوا من أقرب الناس لهم؛ فها هم بنو إسرائيل يتهمون سيدنا عيسى عليه السلام. ابن عشيرتهم. بأنه يمارس السحر ﴿.. فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤَيَّنٌ﴾ (الصف: ٦).

بل زادت كتبهم المقدسة: اتهام أقاربه له بالجنون، انظر النص التالي في إنجيل مرقس (٣ / ٢١-٢٢): «ولما سمع أقرباؤه خرجوا ليمسكوه؛ لأنهم قالوا إنه مختل»، وجاء أقاربه وأصدقاؤه من الناصرة ليأخذوه معهم، ظانين أنه فقد صوابه.^(٢) وسأله قومه: «ألسنا نقول الحق عندما نقول: إنك سامري وإن بك شيطاناً.. الآن تأكد لنا أن فيك شيطاناً» (يوحنا: ٨ / ٤٨-٥٢). وكرر «كثيرون منهم: أن شيطاناً يسكنه، وهو يهذي» (يوحنا: ١٠ / ٢٠). وانظر: (متى ٢١ / ٢٤-٣٧ و ٩ / ٣٤ و ١١ / ١٨-١٩، ولوقا ١١ / ١٥-٢٦، ويوحنا ٧ / ٢٠).

ولكثرة النصوص حول اتهام يسوع بالجنون، جاء في حاشية (٢٩) ٣١٧/٢ من كتاب: «الكتاب المقدس / أنا الألف والياء»: «اتهام يسوع بالمس الشيطاني، اتهام تقليدي في الإنجيل». وفي حاشية (٢٢) ٣٣٥ / ٢: «يبدو أنه (يسوع) منبوذ في الوقت نفسه، من قبل ذويه، ومن قبل سلطات أورشليم الدينية».

كما كان اليهود يُعرّضون بشرف المسيح قائلين: «لسنا مولودين من زنى» (يوحنا: ٨ / ٤٢)، أنقول: إن اليهود هم معاصروه وجيرانه، والأعلم به وبشرف أهله؟

٧. ما عُرف به سيدنا محمد ﷺ من راحة في عقله، وهدوء ومنطق وإقناع في حديثه.

قبل النبوة بخمس سنين.

(١) (الطبقات الكبرى، ابن سعد ١ / ٤٦١).

(٢) (التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، مجموعة من اللاهوتيين، ص ١٩٨٩).

فالمصروع لا يستطيع إدارة شؤون بيته . بل شؤونه الشخصية . فكيف بإدارة دولة مترامية الأطراف، يحيط بها الأعداء من الخارج، ولا تخلو من المنافقين أعداء الداخل .

لقد وضع سيدنا محمد ﷺ الأساس المحكم لأول دولة جمعت شتات العرب، بأبرع تخطيط إداري، وحضاري، وعسكري، وزراعي .. مع قدرة لم يسبق إليها في الخطابة والإقناع .

وقبل ختام نقد تلك الدعوى، تجدر الإشارة إلى قصة إسلام الصحابي ضماد الأزدي (رضي الله عنه) . الذي كان مشهوراً بعلاج الجنون ..، فحين أشاعت قريش أن محمداً ﷺ مجنون، صدقها ضماد ، وأراد أن يشتهر بين العرب أنه عالجه، فلقي محمداً ﷺ وقال له: « يَا مُحَمَّدُ ، إِنِّي أَرْقِي مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ (الجنون)، وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدَيَّ مَنْ شَاءَ، فَهَلْ لَكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ. فَقَالَ: أَعِدْ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ. فَأَعَادَهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ: لَقَدْ سَمِعْتُ قَوْلَ الْكُهْنَةِ، وَقَوْلَ السَّحَرَةِ، وَقَوْلَ الشُّعْرَاءِ، فَمَا سَمِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هَؤُلَاءِ، وَلَقَدْ بَلَغَنَ نَاعُوسَ (أي: وسط) الْبَحْرِ.. هَاتِ يَدَكَ أَبَايَعُكَ عَلَى الْإِسْلَامِ، فَبَايَعَهُ » (١).

وصدق الله العظيم في رد شبهتهم في قوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَحْدَةِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ مُنْقَرِعِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ نَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ (سبأ: ٤٦). تفكروا وحسب !

وبهذا الحث القرآني على التفكير العلمي المنطقي الموضوعي ينتهي عرض ونقد آراء (ديورانت) حول مصدر القرآن الكريم، بعد أن تبين أنها شبهات ضعيفة، لا تصمد أمام قواعد وأسس البحث العلمي .

(١) (رواه مسلم في الجمعة، باب تخفيف الصلاة (٨٦٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقد تم بيان معاني المفردات والتراكيب الواردة في متن الحديث أعلاه من شرح الإمام النووي لصحيح مسلم ٣/ ٢٤٨ .

النتائج والتوصيات

من أبرز ما توصلت إليه الدراسة :

١ . خطأ التسليم بكل ما ورد في كتاب (قصة الحضارة) لجرد دعوى أن مؤلفه مؤلف محايد .

٢ . اشتمل كتاب (قصة الحضارة) على عدد من الآراء المغلوطة حول مصدر القرآن الكريم .

٣ . الشبهات الواردة في كتاب (قصة الحضارة) فيما يختص بمصدر القرآن الكريم شبهات لا تستند إلى دليل علمي صحيح .

أما التوصيات : فيوصي الباحث بضرورة قيام هيئة علمية . تجمع عدداً من المفكرين المسلمين المؤرخين والمُحدِّثين والمفسرين والفقهاء وعلماء في التوحيد والاجتماع .. وغيرهم . بتنقيح الكتاب وبيان أغلوطاته، وترجمة نتائج جهود تلك الهيئة إلى أبرز اللغات العالمية .

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

1. الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 2003م.
2. الاستشراق بين الحقيقة والتضليل / مدخل علمي لدراسة الاستشراق، د. إسماعيل علي محمد، دار الكلمة، القاهرة، ط3، 2003م.
3. الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبد البر القرطبي، دار المعارف النظامية، حيدرآباد (د/ت، ط).
4. إعجاز القرآن، أبي بكر الباقلاني، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1988م.
5. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط12، 1997م.
6. البدء والتاريخ، المطهر المقدسي، دار صادر، بيروت، (د/ت، ط).
7. تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد وتفسير الكتاب المجيد (المشهور بالتحرير والتنوير)، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م.
8. تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1988م.
9. التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، مجموعة من المؤلفين اللاهوتيين، طبع في بريطانيا، (د/ن، ت، ط).
10. حصوننا مهددة من داخلها، د. محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط6، 1981م.
11. دائرة المعارف الإسلامية الاستشراقية أضاليل وأباطيل، د. إبراهيم عوض، مكتبة البلد الأمين، القاهرة، ط1، 1998م.
12. السيرة النبوية، عبد الملك بن هشام الحميري، تحقيق: مصطفى السقا وآخرون، دار الخير، بيروت، ط1، 1992م.

13. شبّهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها، محمد متولي الشعراوي، إعداد: عبد القادر عطا، مكتبة التراث الإسلامي، بيروت، (د / ت، ط).
14. الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع، تحقيق: زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، 1987م.
15. فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الفكر، بيروت، ط1، 1993م.
16. القرآن والحديث دراسة أسلوبية، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، 2000م.
17. قصة الحضارة، ول ديورانت، ترجمة محمد بدران، دار الجيل، بيروت، 1988م، بعناية: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس.
18. قصة الفلسفة، ويل ديورانت، مكتبة المعارف، القاهرة، ط6، 1988م.
19. الكتاب المقدس / أنا الألف الياء، دار المشرق، بيروت، 1989م.
20. مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم الحراني الشهير بابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين، الرياض، 1985م.
21. محمد رسول الله r / منهجٌ ورسالة - بحثٌ وتحقيق، د. محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ط1، 1985م.
22. المرجع في الأمراض العصبية وجراحاتها، د. منصور الشحادات وآخرون، دار الرازي، دمشق (د/ت، ط).
23. مصدر القرآن / دراسة لشبّهات المستشرقين والمبشرين حول الوحي المحمدي، د. إبراهيم عوض، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط1، 1997م.
24. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي، جامعة بغداد، ط2، 1993م.

25. المواهب اللدنية، أحمد بن محمد القسطلاني، تحقيق: صالح الشامي، الكتب الإسلامية، بيروت، ط1، 1991م.
26. موقف الفكر العربي العلماني من النص القرآني / دعوى تاريخية النص نموذجاً، أحمد إدريس الطعان الحاج، أطروحة دكتوراه، جامعة القاهرة، 2003م.
27. موسوعة أعلام الفلسفة، زوني إيلي ألفا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1991م.
28. النبأ العظيم / نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، ط3، 1988م.
29. اليهودية في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، إسرائيل ولفنسون، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1927م.

